الأهرام العربي

السبت 3 يونيو 2006
رقم العدد 480

يوميات السبت

يتمني أن يموت واقفا كالأشجار(1)

رءوف عباس.. صاحب الوجه العلماني

بقلم: عبدالمنعم رمضان

في الثمانينيات قابلت الدكتور رءوف عباس ـ أستاذ التاريخ الحديث ـ مرتين، كانت الأولي في مدينة نصر تحديدا في مقر دار فكر التي أسسها الراحل طاهر عبدالحكيم، وكنت برفقة صديقي الشاعر أحمد طه، آنذاك كان كلاهما يعمل بالدار المذكورة، الدكتور رءوف مستشارا للدار أو ما يشبه ذلك، وأحمد طه ضمن الشغيلة، هذا التمييز ضروري لأن ناصر الأنصاري عندما تولي رئاسة دار الكتب المصرية أخطأ في حق الدكتور ولم يفرق بين الموظفين والأساتذة الذين يخدمون الهيئة بدافع وطني وليس نفعيا، والدكتور كان يقوم بالإشراف علي مركزتاريخ مصر المعاصر التابع لدار الكتب. المرة الثانية التي قابلته فيها مازالت أحداثها غائمة في ذاكرتي، اللقاءان عابران، ولكنهما منحاني ثقة كبيرة في الرجل، وألزماني بتقديره واحترامه ذلك التقدير والاحترام اللذان هو جدير بهما، خاصة أن اللقاء الأول جاء بعد اطلاعي علي مساجلة له حول المأسوف عليه هنري كورييل، أيامها شارك الناقد إبراهيم فتحي في المساجلة، وربما أيضا رفعت السعيد، وكان الكاتب الجميل هنري كورييل رجلا من طراز فريد، الحركة الشيوعية المصرية بمنتصف القرن، تأليف جيل بيرو، ترجمة كميل قيصر داغر.

الحقيقة أن كميل داغر ترجم الفصل الأول فقط من ذلك المؤلف الضخم الذي تناول حياة كورييل ونضاله في مصر ثم بعد طرده منها عام1950، كنا أيامها نقرأ الكتاب بشغف واهتمام لنؤكد لأنفسنا صحة آرائنا ومواقفنا، ومن أجل أن نستمتع بالمذاق اللغوي للترجمات اللبنانية حتي الأخطاء الجغرافية التي ارتكبها كميل داغر فيما يتعلق بأسماء شوارع القاهرة كانت ممتعة، هذه الخلفية حفزتني أثناء تجوالي وتوقفي أمام أكشاك وباعة الصحف علي شراء ثم قراءة كتاب الدكتور رءوف عباس مشيناها خطي، سيرة ذاتية، الصادر عن سلسلة كتاب الهلال ديسمبر2004 ثم الصادر في طبعات أخري لشدة رواجه، العنوان والتوصيف وصورة غلاف الطبعة الأولي حيث وجه المؤلف يحتل المساحة الأكبر، كل هذا استوقفني، وتذكرت بسرعة الممثل المرحوم حسن البارودي، بملابسه الفقيرة وأسماله وهيأته التواكلية المعتمدة علي الله، تذكرته يردد بيته الشعري أو بيانه الشعري:

مشيناها خطي كتبت علينا ومن كتبت عليه خطي مشاها

كان يردده ببطء، باستطعام، بيقين، بصوت عميق، وقدرية وتسليم وأشياء أخري غير مستغربة من حسن البارودي، ولكنها مستغربة من رءوف عباس، أقصد الدكتور رءوف عباس، صاحب الوجه العلماني، والنظارتين، وتجاعيد الجبهة، أذكر أن الكاتب القاص عباس خضر أنشأ ربما في سبعينيات القرن الماضي، أو بعدها قليلا سيرة ذاتية تحمل مقلوب العنوان خطي مشيناها وكان عباس خضر أكثر قدرية من حسن البارودي لأنه جعل الخطي المكتوبة تسبق فعل المشي.. المهم أن الاثنين حسن البارودي وعباس خضر لهما الحق كله في التسلح بتلك القدرية وذلك التسليم، أما عنوان الدكتور رءوف عباس فهو يتعزز دون قصد بعبارات تتخلل سيرته وتمنحها ذلك التسليم العفوي الذي ينزف من حروف العنوان، يقول الدكتور علي سبيل المثال عن أساتذته الذين أسهموا في تكوينه العلمي، يقول إنه مدين لثلاثة من أعظم أساتذة التاريخ الحديث في مصر والوطن العربي هم أحمد عزت عبدالكريم وأحمد عبدالرحيم مصطفي ومحمد أحمد أنيس، وسيظل هذا موقفه إلي أن يلقاهم جميعا في رحاب الله عندما تفرغ كأس الأجل، العبارة ليست مجازية، مرة لأنها طويلة هكذا، ومرة لأنها مسنودة بعبارات قليلة متناثرة في الكتاب تأتي وكأنها القرار الموسيقي للحن التسليم، يقول الدكتور في موضع ما، وعندما يحتفل أعضاء الجمعية باليوبيل المئوي لها عام2045 يومها سيكون الجميع في رحاب من يغدق الجزاء علي من أحسن عملا، وآخر الأمنيات أن يموت صاحبنا ـ يعني

الدكتور ـ كالأشجار واقفا وألا يسقط القلم من يده، ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو علي كل شيء قدير. إنصافا للدكتور يجب أن ننتبه إلي أن تسليمه العفوي جاء في كل مرة موصولا بالموت، عموما الرجل لم يزعم أي زعم، أنه لم يشترك في أي حزب سياسي، لم يشترك في أي تنظيم، ولكنه يميل إلي اليسار إلي اليسار القومي إذا جاز لنا أن نصفه، مشيناها خطي، سيرة ذاتية، كنت بحاجة إلي قراءة الكتاب كله لأتمكن من عبور العنوان عندما كان توفيق الحكيم يعمل نائبا عاما في الأرياف، وأثناء اشتراكه في جلسة مملة في إحدي محاكم الأقاليم، ظل يغالب النوم لكنه تنبه فجأة علي صوت غريب لرجل غريب، كانت جنحة تشرد، قال القاضي للرجل الغريب: أنت متهم بالتشرد، فاستنكر الرجل: أنا متشرد عيب، أنا حاوي يا سعادة البك، ويستمر الحوار بين القاضي والرجل الغريب إلي أن يقول الرجل: أنا فنان، رد القاضي: فنان، ثم التفت إلي توفيق، وهنا يتكلم الحكيم: البراعة شرط من شروط الفن الحاوي بارع، ولكن هل البراعة وحدها يمكن أن تصنع فنانا، إن الفن هو الشيء الزائد علي البراعة، والفنان هو الذي يبقي بعد البراعة، تذكرت توفيق الحكيم، وتذكرت أيضا أن فنون السيرة قد أصبحت واحدة من الفنون التي لارتفاعها تبدو وكأنها مستحدثة وكأنها بدعة، وأنها ابتعدت كثيرا عن أشكالها البائدة، إن السيرة الآن أصبحت هي الشيء الزائد علي مجرد رواية الأحداث، علي مجرد الصدق، وإلا كنا أمام شيء آخر يشبه السيرة مثلما ألعاب الحاوي أو براعته تشبه الفن، وكتاب الدكتور علي الرغم من فوائده العميمة، وشجاعته وتشريحه للفساد في مؤسسة التعليم ليكون دالا علي فساد عام انتشر وذاع وعم الوطن، هذا الكتاب أقرب إلي دفتر الجرد، إنه جردة صادقة وأمينة ونافعة أكثر من سيرة بفنونها وما تراكم داخلها من أساليب وصيغ وأشكال وهو ليس جردة حياة، إنه جردة أستاذ جامعي، ابتدأت وانتهت وقد رسمت لنفسها إطارا لم تخرج عليه، لم تشأ أن تخرج عليه، جردة أستاذ منذ بداية تعلمه وتكوينه حتي أصبح رئيسا للجمعية التاريخية، لم يعد مقبولا رغم شيوعه ذلك الخلط بين فنون السيرة وكتب المذكرات والجردات التي يكتبها رجال السياسة ورجال الأعمال والفنانون والأكاديميون، كتاب الدكتور يبدأ بعد المقدمة بسنوات الطفولة، ولأنه شاء أن يصنع مسافة موضوعية أثناء حكيه لحكاياته فقد قرر الاستغناء عن ضمير المتكلم والاستعانة بضمير الغائب، في المقدمة أطلق علي نفسه اسم الشيخ، وفي الكتاب كله سمي نفسه صاحبنا، وهذه الحيلة الشيخ والفتي وصاحبنا، التي انغمست فينا منذ سيرة طه حسين الأيام وأصبحت تقليدا يمارسه أدعياء كتابة مثل الدكاترة سمير سرحان أو كتاب محدودو الخيال، حتي أنني تمنيت لو أن الدكتور وجد حيلة أخري بدلا من الشيخ وصاحبنا فالكتابة مثل التاريخ اجتهاد في سبيل الخروج علي السائد.

كتاب الدكتور يبدأ بعد المقدمة بسنوات الطفولة، ومثل أغلب كتب المذكرات والجردات، ومثل أغلب السير أيضا تظهر فصول الطفولة باعتبارها الفصول الأجمل والأكثر عذوبة، وهي في كتابنا كذلك، خاصة أنها تحلت بصدق لم يخجل من أي أصول اجتماعية، لم يخجل من أب كان عاملا بالسكة الحديدية، وجدة تعمل خياطة لجيرانها، وفقر يكاد يوقفه عن التعليم، ومنذ سرده لحوادث الطفولة عثر الكاتب علي نغمته الرئيسة التي ستحكم الكتاب كله والتي ستصب فيها بعض النغمات الفرعية، لنخرج من نشيد الجردة بإحساس غير مشتبه في دقته، إحساس بأن الكاتب يسعي إلي تصوير رحلة حياته العلمية منذ بدايتها علي أنها رحلة صعبة معوقة جدا لولا أن صاحبها استطاع أن يقوم بعبور البحار السبعة التي حاولت دائما أن تعوقه، الفقر والوضع الطبقي في الطفولة والصبا، والفساد بصوره وآلياته المختلفة منذ التخرج وحتي نهاية الكتاب، فالطفولة والصبا في فصولها الخمسة الأول منذ استدعاء الماضي، حتي التسلل إلي الجامعة، هذه الفصول الجميلة بصراحتها وبؤسها، كل كائناتها وأحداثها كانت مشدودة ومعلقة بحبل وحيد، حبل الإصرار علي التعليم، لذلك لم نتعرف علي هذه الكائنات بعيدا عن هذا الحبل، لم نتعرف عليها ككائنات حية، قدرة الدكتور هائلة في السيطرة علي الأحداث والشخصيات لم يسمح لأي منها بالحرية والظهور في مشهد خاص، هذه النغمة الرئيسة ظلت تعمل بالدقة ذاتها وهي تروي ما بعد التخرج، إنها مشدودة ومعلقة بالحبل إياه حبل أستاذ الجامعة، نستمتع كثيرا ونحن نقرأ مواقف الدكتور ومعاركه مع الفساد، نفرح كثيرا بعدم سقوطه، نؤيده في استخدامه للأسلحة العلنية المتاحة مثل الاستعانة بالصحافة إن لزم الأمر، والتربيط مع شرفاء مثل حلمي النمنم وعبدالعال الباقوري ومجلة المصور وصحيفة الأهالي إلا إذا صدرت لها تنبيهات من جهات سيادية، سنتوقف طويلا أمام ذلك التعنت غير الرسمي ضد الأقباط، سواء عند التعيين، وعند عضوية اللجان، واستبعادهم من وضع امتحانات الثانوية العامة، وافتراضهم أنهم أهل ذمة وأن أهل الذمة ينبغي الاحتراس وعدم الثقة الكاملة فيهم، نتساءل كيف تكونت هذه الروح وتفشت في تلك القنوات غير الرسمية، أذكر عندما كنت أعمل باحثا بالجهاز المركزي للتنظيم والإدارة، واتبع لمديرة مسيحية مستنيرة اسمها انطوانيت، وعندما شرع السيد وكيل الوزارة ورئيس الإدارة المركزية في إعادة تسكين العاملين الذين تزايدوا وضاق بهم المبني، وأصبح ضروريا أن يتشارك كل اثنين من المديرين في غرفة واحدة، وتحددت غرفة أنطوانيت مع مديرة أخري محجبة اسمها سميحة، تنشع بالتعصب، فور معرفة التوزيع المكاني ذهبت سميحة إلي وكيل الوزارة، وبعد أن خرجت، أمر الوكيل بإعادة النظر في تسكين أنطوانيت، أقنعت زملائي أن الاستهانة بأنطوانيت سوف تعني الاستهانة بنا نحن التابعين لها، وعدم مراعاة حقوقنا، لذا اتفقنا علي كتابة طلب نقل

جماعي بسبب الاضطهاد الديني الواقع علي السيدة أنطوانيت، ارتج وارتجف وكيل الوزارة وتراجع فورا عن قراره، خيوط نسيج ما حكاه الدكتور يتصل بخيوط نسيج هذه الحكاية، مما يجعلني أعيد السؤال، ما الذي حدث للمسلمين المصريين، الأصح أقلية منهم، لكي تشيع مشاعر عدم الثقة في الأقباط، خاصة عند هؤلاء الأقرب في توصيفهم الطبقي لأن يكونوا من شرائح الطبقة المتوسطة، ربما شرائحها العليا، تظل نغمة الدكتور رؤوف عباس الرئيسة تعمل حتي تصل إلي لحنها الختامي، فبعد عبور البحار السبعة المليئة بالطين والتماسيح والقراصنة وبقية العوائق، بعد عبورها دون بلل، كان لابد أن نقرأ هذا الفاكس الذي كتبه البطل في إحدي نوبات احتجاجه، يقول: احتجاجا علي أسلوبك غير اللائق في التعامل مع الأساتذة ذوي القامات العلمية العالية، لا يشرفني استمرار التعاون معكم، انتهت موسيقي الكريشندو، فيما كانت موسيقي التواضع العالي تنكمش وتحتجب كأنها شمس بيضاء مهانة أو كأنها شمس سوداء.

http://arabi.ahram.org.eg/arabi/Ahram/2006/6/3/ysat0.htm